المؤتمر العربي الإقليمي الأول لحماية الأسرة

دور الدين في حماية الأسرة
من منظور الديانة المسيحية

الأب الإيكونومس نبيل حداد

دور الدين في حماية الأسرة من العنف الأسري
من منظور الديانة المسيحية

يعلن الإنجيل المقدس أنه في البدء مع خلق الإنسان على صورة الله ، لينعم بحياة زاخرة وكاملة (تك 7/2،حك 2/9-3) وقد ناقضت هذا خبرة ممزقة، خبرة الموت الذي يدخل العالم ويلقي على الوجود البشري بأسره ظل الفراغ. فالموت دخل العالم بسبب حسد إبليس (تك 1/3، 4-5) وبسبب خطيئة والدينا الأولين (تك 17/2، 17/3-19). ولقد دخله من باب العنف، بسبب مقتل هابيل على يد أخيه قاين: " فلما كانا في الصحراء وثب قاين على هابيل أخيه وقتله" (تك 8/4).

هذا المصرع الأول يصوره سفر التكوين تصويراً بليغاً في صفحة فريدة من صفحاته النموذجية: صفحة تكتب كل يوم في كتاب تاريخ الشعوب، بلا هوادة وبطريقة متكررة ومخزية. فكما في المقتل الأخوي الأول، ففي كل مقتل ، بل كل عنف أسري تنتهك القربى "الروحية" التي تضم الناس أسرة كبيرة واحدة، فيشترك الكل في الخير الأساسي الواحد: المساواة في الكرامة الشخصية . وليس من النادر أن تنتهك قربى " اللحم والدم" ،عندما تتفاقم الصعوبات المحدقة بالحياة، في العلاقات بين الأهل والبنين.

"من يد كل إنسان اطلب نفس أخيه" (تك 5/9): الحياة البشرية مقدسة ولا يسوغ انتهاكها . حياة الإنسان مقدسة لأنها تفترض، منذ البدء، عمل الله الخلاق،وتظل أبداً في علاقة خاصة مع الخالق هدفها الوحيد. فالله هو سيد الحياة من بدايتها حتى نهايتها: ولا يسوغ لأحد أيا كانت الظروف أن يدعي لنفسه حق القضاء مباشرة على كائن بشري بريء" أو المس بقدسية الحياة البشرية وحصانتها أو ما يرافقها من كرامة لهذه الحياة وهي كرامة الشخص البشري المخلوق على صورة الله ومثاله.

الواقع أن الكتاب المقدس يوجه إلى الإنسان وصية "لا تقتل" على أنها أمر إلهي. (مز 13/20، تث 17/5). هذه الوصية- وقد شددت على ذلك – متضمنة في الوصايا العشر، في صميم الميثاق الذي صنعه الله . ولكن هذه الوصية كانت متضمنة، من قبل في الميثاق الأصلي الذي عقده الله مع البشرية، بعد العقاب المطهر الذي أحدثه الطوفان نتيجة لانتشار الخطيئة والعنف (تك 5/9-6).

وصية "لاتقتل" تملك صراحة واضحة فهي في نهيها عن القتل تبين الحد الأقصى الذي لا يمكن أن نتخطاه ولكنها ضمنياً تحمل الإنسان على أن يتمسك بموقف إيجابي من الاحترام المطلق للحياة وكرامتها يفضي به الى تعزيزها والتقدم في طريق المحبة وما تقتضيه من بذل وانفتاح وخدمة.

و محبة القريب وصية تضاهي وصية محبة الله: " بهاتين الوصيتين ترتبط الشريعة كلها والأنبياء" (متى 36/22-40). ويؤكد القديس بولس " أن الوصية التي تقول ..لا تقتل .. وسواها من الوصايا تتلخص في هذه الكلمة: " أحبب قريبك حبك لنفسك " (روم 9/13، غل 14/5). وصية " لا تقتل " التي استعادتها الشريعة الجديدة وكمّلتها تظل شرطاً لا يمكن التخلي عنه لدخول الحياة" (متى 16/19-19). من هذا المعنى نلاحظ أيضاً كيف تكتسب كلمات القديس يوحنا الإنجيلي معنى حاسماً : " من أبغض أخاه فهو قاتل . (1يو 15/3).

إن أقوال سفر التكوين تتضمن في شأن الإنسان الحقيقة التي تنطبق عليها تجربة البشر نفسها. الإنسان مولود منذ " البدء ذكراً وأنثى: حياة المجموعة البشرية في جماعاتها الصغيرة وفي مجتمعها كله موسومة بسمة الثنائية الأصلية هذه. فمنها "ذكورة"

الأشخاص أو "أنوثتهم" ومنها أيضاً تكتسب كل جماعة ميزتها وغناها فيتكامل أشخاصها . " ذكراً وأنثى خلقهم" (تك 27:1) ففي هذا ايضاً أول إعلان لمساواة الرجل والمرأة في الكرامة: إنهما كليهما شخصان متماثلان فتكوينهما مع الكرامة النوعية التي تتبع هذا التكوين يثبت منذ البدء ميزات خير البشرية العام في كل حجم وفي كل ميدان حياة. ففي سبيل هذا الخير العام يعملان كلاهما، رجلاً وامرأة، وعلى هذا التكاتف تقوم في أصول التعايش البشري نفسها، ميزة التشارك والتكامل.

في البدء خلقَ الله الإنسان على صورته كمثاله ,هذا الخلق ينطوي على كرامة تنبع من فعل الخلق الإلهي التي ينبغي احترامها. إذن ، فالعنف بكل أشكاله هو إهانة لهذه الكرامة وهو في الوقت ذاته تمرد على الإرادة الإلهية. وتظهر صحة هذا القول بالتحديد في العنف الأسري . إن اساءة المعاملة داخل الأسرة سواء كانت بدنية أو كلامية أو جنسية أو عقلية، إنما هي انعكاس مأساوي لما يواجهه المجتمع خاصة في أيامنا الحاضرة. فلا نستطيع تجاهل حالات العنف الذي يدمر عائلات بيننا ويجرح انسانيتها وأنسانيتنا معها ، في مخالفة صريحة لرسالة الحياة وهي تتجاوز كل الحدود والمستويات الإجتماعية ولا تنحصر في عرق أو لون أو دين. فمرتكبو العنف وضحاياه هم من كافة المستويات والفئات : وتتراوح طبقاتهم من الأغنياء والفقراء ومن المنبوذين إلى اكثر الفئات المحترمة في المجتمع.

يتمثل هذا العنف في أشكال مختلفة منها

- الكلام المهين
- استغلال الموارد المالية للإستفزاز
- استخدام القوة البدنية و التسبب في الإيذاء أو القتل

هذه بعض من قائمة طويلة، لكن هذه الأشكال على اختلافها هي في النهاية عنف

إن العنف الأسري يستبدل روابط الطبيعة للحب والتنشئة، بخلافات غير طبيعية بين متخاصمين يدوسون دون رحمة كرامة وحقوق وتطلعات أولئك الذين وعدوا بمحبتهم وتكريمهم في السراء والضراء.

من أحب إمرأته، أحب نفسه. فإنه ما من أحد ابغض قط جسده الخاص بل إنما يغذيه ويعتني به كما يفعل المسيح بالكنيسة: أولسنا أعضاء جسده ؟ (أفسس 5:28-30) ويحرض القديس بولس الرسول الزوجين قائلاً " كونوا خاضعين بعضكم لبعض في مخافة الله" (أفسس 21:5).

ذلك هو بالتأكيد تعبير جديد عن الحقيقة الأبدية الخاصة بالزواج والأسرة، على ضوء العهد الجديد. والمسيح أوحى بها في الإنجيل ، بحضوره عرس قانا الجليل وبذبيحته على الصليب، وبأسرار كنيسته. وهكذا يجد الزوجان في المسيح مرجعاً لحبهما الزوجي. وفي حديثه عن المسيح، يستند القديس بولس بطريقة مماثلة الى الحب الزوجي ويعود الى سفر التكوين: " لذلك يترك الرجل اباه وأمه، ويلزم امرأته فيصيران كلاهما جسداً واحداً" (24:2 – أفسس 31:5). هذا هو " السر العظيم" المتمثل في الحب الأزلي الكائن منذ بدء الخليقة والمعلن في المسيح والذي عهد به الى الكنيسة ويردد الرسول: " إن هذا السر العظيم : أقول هذا بالنسبة الى المسيح والكنيسة " (أفس 32:5).

والكنيسة اذ تدرك أن الزواج والعائلة يشكلان إحدى أغلى القيم الإنسانية تريد أن تسمع صوتها فتساعد أولئك الذين يدركون قيمة الزواج والعائلة وقدرهما ويسعون الى أن يعيشوا بمقتضى هذه القيمة بأمانة، وأولئك الذين يبحثون في حيرة وقلق عن الحقيقة ،

واولئك الذين يمنعون ظلماً من أن يعيشوا بحرية عيشة عائلية. فيما تساند أولئك وتنير هؤلاء وتساعد الباقين، وتضع ذاتها في خدمة كل إنسان يهمه مصير الزواج والعائلة.
إن العائلة المسيحية هي الجماعة الأولى المدعوة الى تبشير الشخص البشري في طور نموه بالحياة المسيحية والى قيادته، بفضل تربية وثقافة دينية متدرجة الى بلوغ ملء يضجه الانساني والمسيحي.
يقوم تعليم الكنيسة على أن الله رسم الزواج كشراكة حميمة للحياة كلها تقوم على الحب والموافقة الشخصية ، يصبح فيها كل طرف عطية ذاتية للآخر. وكما أن الزواج رباط مقدس كذلك أيضا حياة الأسرة مقدسة لأن الأشخاص يختبرون محبة الله داخل الأسرة. فالكنيسة تعلم أن تصبح الأسرة أكثر فأكثر مجتمعاً للحياة والحب في جهد يجد إكتماله، كما هو حال كل شيء مخلوق، في ظل الله .والعنف الذي يحدث ضمن الأسرة يُحد بشكل خطير من إمكانية تحقيق الأسرة كمال دعوتها لتنشر إرادة الله محبة وسلاماً.
ظل العنف الأسري عنصراً مأساوياً في حياة المجتمعات والشعوب و يظل بلاءً إن لم نقل طاعوناً يهدد مجتمعاتنا الحاضرة و يعاني منه الكثيرون في بيتنا الأمر الذي يتطلب منا جميعاً شجاعة وصدقاً مع الذات لمواجهة مسؤولية الكشف عن وجهه القبيح .

إن العنف الأسري هو سلوك مكتسب يورثه جيل إلى آخر، وقد يكون تناول الكحول والمخدرات من أسبابه.في حالات كثيرة وللأسف ما زلنا نعرف القليل عن سبل معالجة العنف الأسرى والوقاية منه . ولكن غالباً ما نجد ميلاً إلى تبسيط المشكلة من خلال تبريرها بالضغوط الإقتصاية و الحياتية والإجتماعية التي تؤدي إلى التشنج ضمن وحدة الأسرة.

إن الجماعة الإنسانية تتألف من بشر خطائين (غير معصومين) وخطأة وبارتكاب هذه الأخطاء والخطايا يشوهون قداسة الفطرة الإنسانية فيهم . ونستطيع القول بناء على خبرتنا الراعوية انه ليس في الماضي فقط بل حتى في أيامنا هذه يجري حضّ الأزواج وغالباً النساء على إظهار المسامحة ونسيان الإساءة التي يتعرضن لها معاملة أزواجهن لهن . كما يطلب منهن مواصلة الحياة الزوجية بشكل طبيعي، وبالتالي البقاء عرضة للعنف وهنا يظهر صعوبة فهمنا لمعاناة الضحية أو ربما إعترافنا بها . إن هذا وإن يكن عن نية حسنة إحياناً إلا أنه ينطوي على تغاضٍ عن طبيعة تنامي العنف في الأسرة ، الذي ينطلق من ثقافة وبيئة تسلطية. فتشجيع الضحية على العودة إلى مثل هذه البيئة دون الإفادة من خبرات المختصين هو أمر يفتقر إلى الحس بالمسؤولية، و تبرير مثل هذه الأخطاء والخطايا بإسم الإيمان تؤدي إلى عواقب وخيمة.

إننا ندرك أن النصوص المقدسة غالباً ما تستعمل بطريقة غير صحيحة لتبرير طغيان الأزواج على زوجاتهم. كما في الآية "ولتخضع النساء لرجالهن"(أفسس 22:5) . لقد كتبت هذه الآية لتناسب زمانها وبيئتها، وهي تعكس صورة هرمية السلطة في الأسره كما كانت عليه في زمن الأمبراطورية الرومانية ، التي كان القديس بولس مواطناً فيها إذ كان على النساء الزوجات أن يخضعن لأزواجهن كما يخضع العبيد لسادتهم.

من حسن الطالع أننا جميعاً في هذه الأيام نتحدث عن مساواة الرجل ولمرأة كما يتطلبها الكتاب المقدس الذي يتحدث عن هذه المساواة في الكرامة والخلق " ذكراً وأنثى" خلقهما . ولكن في النص يحث القديس بولس الرجال في الوقت ذاته على أن يحب الرجال زوجاتهم ، وأن يحب الرجل امرأته كما أحب المسيح أيضاً الكنيسة (أفسس 25:5)، ففي الزواج المسيحي يعطى كل واحد من الزوجين حياته للآخر كما أعطى المسيح نفسه للكنيسة، وأن يحب الأزواج والزوجات بعضهم بعضاً باشكل الذي يرى فيه كل منهما الآخر مساوياً له، وهذا تكليف إنجيلي واضح وصريح.

لقد شكل العنف الأسري دوماً عائقاً بين أفراد الأسرة. فها نحن نسمع كما يعلم الكتاب المقدس صراخ دم هابيل، ونسمع صراخ راحيل على بنيها وصراخ المعذبين الأطفال وهي تختلط مع ضحايا العنف الأسري أيامنا الحاضرة. يجب وقف العنف فوراً . إننا ندعو كل فرد في مجتمعنا أن يفتح قلبه إلى حياة المحبة ،وعلينا جميعاً من كل الفئات المسلمين والمسيحيين ، إدراك مستوى وحجم العنف الأسري والإلتزام بإيجاد الوسائل لوقف هذا الكابوس و العمل على تكريس البرامج والجهود لمعالجة ضحايا العنف ومرتكبيه، ولوضع هذه الآمال موضع التنفيذ، يوصي بما يلي:

- خلق بيئة آمنة ومساندة ضمن مؤسساتنا وجماعاتنا توفر المساعدة لضحايا ومرتكبي العنف.
- تجديد فهمنا للنصوص المقدسة التي تأمر باحترام الكرامة الإنسانية، وكل الإلتزامات الطبيعية المترتبة على العلاقات الإنسانية خاصة العلاقة الزوجية والأسرية.
- وضع المعايير للإستجابة الفاعلة لحاجات الضحايا ومرتكبي العنف.
- تثقيف الوعاظ ورجال الدين على التعامل الواعي مع حالات العنف، وأن يتضمن هذا التعامل المساندة الروحية والعملية والعاطفية.
- اغتنام فرص الإعداد للزواج للتوعية بالعنف الأسري وآثاره المدمرة على العلاقات الأسرية خاصة الرابطة الزوجية
- معالجة حجم العنف الأسري كما تظهر بشكل واضح ومأساوي في مجتمعنا، والإقرار بمسؤوليتنا عن هذا العنف كأفراد و كمجتمع وكمؤسسات دينية.
- تأسيس شبكات من الهيئات الدينية و القانونية والشرعية والطبية والمدنية وتوجيه طاقاتها للتغيير الوقائي في المفاهيم والأفكار السائدة والسياسات العامة .
- مواجهة تحدي ثقافة العنف والانحلال والفساد الأخلاقي الذي يساعد على انتشار الاستعمال غير المسؤول لوسائل المعلومات والتكنولوجيا وصناعة التسلية والترفيه.